

إختصارات

أ.و.ت	الأرشيف الوطني التونسي
A.O.M	Archives d'Outre-Mer
C.T.	Cahiers de Tunisie
I. S. H. M. N.	Institut Supérieur d'Histoire du Mouvement National
M. A. E	Archives du Ministère des Affaires Etrangères en France (Quai d'Orsay)
R. A.	Revue Africaine
R. H. M	Revue d'Histoire Maghrébine
I.B.L.A	Revue des Belles Lettres Arabes
I.R.M.C	Institut de Recherche sur le Maghreb Contemporain
E.I.	Encyclopédie de l'Islam

التقديم

"تونس الشهيدة"، "هذه تونس"، "تونس الخضراء"، "هنا تونس"1...، أصبحت هذه العبارات عندما تقرأ أو تسمع اليوم من طرف التونسيين أو غيرهم، أمرا بديهيا، إذ تحيل على كيان جغرافي سياسي أفته الأعين والأسماع هو البلاد التونسية. وينطبق هذا القول أيضا على صفة "التونسي" أو "التوانسة" التي تحيل أساسا على الهوية الترابية للأفراد الذين ولدوا على هذه الأرض أو الذين اختاروا الانتساب إليها. لكن لا يتبادر إلى ذهن أغلب الناس، أن اسم تونس ظلّ حتى بداية القرن العشرين، في تصوّر الأغلبية من السكّان، لا يدلّ على أبعد من فضاء المدينة التي كانت مركزا للحكم الحسيني ثم تحوّلت فيما بعد إلى عاصمة للبلاد. وتبعا لهذا التصوّر لم تكن صفة "التونسي"، التي تحيل على الهوية الترابية، تعني بالنسبة إلى أغلب أهالي البلاد حتى ذلك التاريخ، إلا كلّ من ينتمي إلى مدينة تونس. وللإشارة إلى مجمل البلاد التونسية كان اسم تونس يرد باستمرار في صيغة تركيب نعني أي مضافا إلى أسماء أخرى مثل الإيالة أو العمالة أو المملكة...، كما ظلّ اسم "إفريقية"، الأكثر تواردا في المصادر التاريخية حتى أواسط القرن التاسع عشر، للدلالة على المجال الذي بات اليوم يحمل اسم البلاد التونسية. أما أهالي البلاد فكان كل منهم يُنسب إلى عشيرته أو قريته أو مدينته. كيف اتّسع اسم المدينة ليستوعب مجمل المجال الذي كان يسمى "إفريقية" ثم أطلقت عليه الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن السادس عشر اسم "إيالة تونس" وأشار إليه ابن أبي الضياف في الستينات من القرن التاسع عشر باسم "الوطن التونسي"؟ متى وكيف أصبح لتونس كيان ترابي يحمل نسبها ويوظّف كمرجعية انتماء بالنسبة إلى حكامها وسكّانها وأماكنها؟

يطرح هذا التساؤل مشكلة تكوّن مجموعة "وطنية" أو ما سماه ب. أندرسن بـ"المجموعة المتخيلة"2، أي تلك التي تعي انتماءها إلى فضاء يتجاوز مجالها المحلي الضيق (قبيلة، أو قرية أو حي أو مدينة...) وأقلّ شمولية من فضاء الأمة الإسلامية.

1 - تونس الشهيدة. *La Tunisie Martyre : Ses revendications*, Paris, Jouve et Cie éditeurs, 1920 وهو كتاب تأسيسي في تاريخ الحركة الوطنية التونسية ينسب إلى عبد العزيز الثعالبي. - هذه تونس للدكتور الحبيب ثامر مطبعة الرسالة، 1948. "تونس الخضراء" هو عنوان مقال في دائرة المعارف الإسلامية، 1934. وهو كذلك من الشعارات الكثيرة التوارد في الوسائل السمعية والبصرية المحلية وبالخصوص في الدعاية السياحية يستغلّ كصورة إيجابية تحيل على معاني العيش الآمن والمطمئن. "هنا تونس" هو عنوان المسرحية التي أخرجها توفيق الجبالي وعرضت في موسم 2002-2003 في فضاء التياترو بتونس.

2 أو *imagined community* حسب تعبير الباحث الأمريكي بيندكت أندرسون الذي أطلق على المجموعات القومية اسم المجموعات المتخيلة باعتبار أن كل فرد فيها يشعر بالانتماء إلى مجال واحد ومجموعة واسعة مع أنه لن يتسنى له بحال معرفة كل الأفراد الذين تتكون منهم تلك المجموعة والتي ينسب إليها. راجع:

Benedict Anderson ; *L'imaginaire national, réflexion sur l'origine et l'essor du nationalisme*, Paris- la Découverte, 1996, p. 19.

تساهم عدّة عوامل في حصول مسار تكون الإنتماء الوطني للبلاد، اخترنا منها في هذا البحث تشكّل الكيان الترابي للبلاد التونسية في العهد العثماني الممتدة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر.

قد يبدو الحديث في موضوع المجال الترابي، وما يرتبط به من تكوّن للدولة الوطنية، في الظرف الراهن مسألة ثانوية، لا تستحق التوقف عندها أو البحث فيها، نظرا لطبيعة المرحلة التاريخية التي نعيشها اليوم والموسومة بالعولمة، تلك الظاهرة المتميزة بتوسّع الكوني لمختلف الشبكات: شبكات الاتصال ونقل الأفراد والمعلومات ورأس المال والأفكار إلخ. يتماهى مفهوم العولمة (globalisation) مع معنى الشمولية، ويتجاهل الفروقات الإقليمية والحدود بين الدول، بل إن منطق الدولة الترابية والقوميات يصبح في ظلّه ظاهرة تاريخية تجاوزتها الأحداث. لكن من المفارقات أيضا، أن هذه الظاهرة أي ظاهرة الشمولية واكبتها وتواكبها حركات مقاومة وانطواء على الذات جعلت أحد الباحثين يحدد مفهوم ظاهرة العولمة بقوله "إذا كانت الشمولية (l'universel) تعني "المحلي بدون الجدران" فإن العولمة تشبه إلى حدّ كبير "العالمي مع الجدران"¹. تتماهى حركات الممانعة للكونية، أحيانا مع حدود الدول أو الجهات، وتبدو في بعض الحالات الأخرى متحرّرة من الانتماءات السياسية الترابية (كالحركات الإسلامية مثلا). ويتخذ هذا التحدي للعولمة ولممارسات المناصرين لها، في بعض الأحيان طابعا عنيفا. بذلك تبدو حدود الدول الترابية اليوم مثلها في ذلك مثل الحدود الرمزية للجماعات الجهوية وكأنها دائمة ومستديمة².

أما في الفضاء المسمى بالعالم العربي وتحديدًا في البلاد المغربية، وبرغم طموحات الوحدة، لا يزال خطاب الهوية الوطنية في كل دولة منها فاعلا مقيما للدليل على تواصل انقسامات قديمة، وكأن وزن التاريخ الوطني في هذه الربوع يتحدّى بدوره العولمة. ولا تنفصل البلاد التونسية عن هذه التحولات ففي الوقت الذي يدعو فيه الخطاب السياسي اليوم إلى ضرورة مواكبة التحولات العالمية ونبذ الانغلاق (عبر إعادة الهيكلة، تشجيع التصدير، ضرورة الانفتاح على الخارج...) نلاحظ تأكيدا على عروبة تونس وإسلاميتها وتجذّرها في ماض عريق متعدد الثقافات والهويات. رسّخت كلّ هذه التطورات لدينا القناعة بأن مواضيع الدولة والأمة والمجال، لا تزال فاعلة في الوعي وتستحقّ الدراسة والبحث.

¹ «Si l'universel c'est "le local moins les murs", la mondialisation ressemble fort à "un global plus les murs".»

Laidi (Zaki) : « qu'est-ce que la mondialisation ? », in *Libération* du 1er Juillet 1996.

² تواصل الشعور بالتمايز والانطواء لدى سكان مقاطعة ألمانيا الشرقية بعد سقوط حائط برلين وتوحيد الألمانيتين: Thomas K. Schippers ; « La frontière dans l'imaginaire identitaire en Europe », dans *Frontières*, textes réunis et présentés par Christian Desplat, Editions du Congrès national des sociétés historiques et scientifiques 125è (CTHS), Lille, 2000, pp.79 – 85, p. 82.

لم ينل تشكل المجال الترابي التابع لتونس في العهد العثماني أو قبله حظه من الدراسة عندنا، وتنطبق هذه الملاحظة على أغلب الدراسات العربية التي تناولت بالبحث مسألة تشكل الدولة في الفضاء العربي الإسلامي. فبالرغم من أن هذا الموضوع، أي موضوع الدولة، كان ولا يزال أحد الهواجس المحورية لدى الباحثين من مختلف الاختصاصات، فإن الدراسات التي تناولت مسألة الدولة العربية في تاريخها القريب أو في ماضيها البعيد، غالبا ما تستثني من ألقها الإقليم الترابي، رغم أنه يشكل إحدى الأبعاد المؤسسة لها. ومن العلامات المعبرة عن هذا الوضع والتي لها مدلولها العميق، غياب مرادف في اللغة العربية للمصطلح الغربي Etat-territorial¹. بحيث تعترضنا مصطلحات متعددة منها مثلا الدولة القطرية² أو الدولة الإقليمية³ أو الدولة الوطنية أو الدولة الإقليمية⁴ أو البلد-الدولة⁵... أما المصادر المحلية التي اعتمدها في هذا البحث فهي لا تقدم مصطلحا معينا بل مجموعة من المفردات الدالة في مجملها على المجال مثل الوطن⁶، الملك والأرض⁷، الوطا والتراب⁸، إضافة إلى عبارات المملكة والعمالة... فهل أن غياب مصطلح معبر عن هذا الشكل من التنظيم السياسي الحديث مردّه غياب فكرة المجال من الحقل الثقافي العربي الإسلامي؟

وخلافا لما نلاحظه من ضمو لهذا الجانب في البحوث العربية، راكم الحقل الثقافي الأوروبي أو الغربي كما معرفيا هائلا في اختصاصات مختلفة: أنثربولوجية، تاريخية، جغرافية، سياسية...، حول موضوع المجال ودوره في انبعاث الدولة الحديثة وتكوّن الهويات المحلية أو الوطنية. لنحدّد أولا معنى المجال.

يستند مفهوم المجال على ترابط عنصرين أساسيين وتفاعلهما هما: الأرض والإنسان. لكن مدلوله لا يتوقف عند الفضاء الجغرافي في معناه البسيط أي كمجرد إطار طبيعي أو قاعدة مادية يعيش

¹ حول التباين الواضح في مفاهيم المجال والسيادة والدولة بين العالم الإسلامي والغربي يرجع : Bassam Sourati; « L'espace de la dawla dans le monde arabe moderne », dans *Maghreb-Machrek*, Espace et société dans le monde arabe, n° 123, janvier - Février -Mars, 1989, pp. 71-80.

² بهجت القرني؛ "أفدة متغربة و لكنها باقية تناقضات الدولة العربية القطرية"، في *الأمة والدولة والاندماج في الوطن العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية ومعهد الشؤون الدولية (إيطاليا)، الجزء الأول، ص. 50.

³ نفس المرجع، ص. 62.

⁴ هشام جعيط؛ *أزمة الثقافة الإسلامية*، ص. 154.

⁵ - إيليا حريق؛ "نشوء نظام الدولة في الوطن العربي"، ضمن *الأمة والدولة*...، مرجع مذكور، ص. 28 - 29.

⁶ الأرشيف الوطني التونسي: الصندوق 212، الملف 230، المراسلة عدد 15 بتاريخ 1259 هـ / 1843 من ورغة إلى أحمد باي تخبر عن "بيوت من ورغة حارثين بوطن الغرب (أبي الجزائر)".

⁷ - احتج عامل منطقة الرقبة (في شمال البلاد) على استيلاء الفرنسيين على أرض خمير قائلا: "فعرقتهم (أي الفرنسيين) أن هذه الأرض المدعى عليها هي ملك الجوابلية من خمير وبها جبانهم وروابطهم وهي من أحواز عمالة مولانا وسيدنا حفظه الله فأجابوني نحن تابعين أثر ملك نهد..."، نفس المصدر: الصندوق 212، الملف 230، المراسلة عدد 10 بتاريخ 19 شعبان 1269.

⁸ في مراسلة لحاكم القالة الفرنسي إلى بني مازن، في المنطقة الحدودية، تُرجمت إلى العربية المحكية، سنة 1254 هـ (1840) نجد ما يلي " نخبركم أن الوطا والتراب الذي نازلين فيه راه متاع الفرانسييس ولا بد تعط الحكر". وكلمتي " الوطا والتراب" الواردتين في هذا الخطاب المراسلة تحيلان على لفظ Territoire الواردة في المراسلة المذكورة. المصدر ذاته: الصندوق 212، الملف 241، المراسلة عدد 14.

منها البشر وعليها تنعكس أنشطتهم، بل إن المجال في معناه الحديث أي كما يتجلى من خلال مختلف البحوث، وكما سنستعمله في دراستنا هذه، يتضمن إلى جانب البعد المادي مكونات أخرى أخرى غير مادية.

يتضمن المجال معنى ماديا إذ يتماهى مع فضاء جغرافي ينحصر ضمن حدود واضحة، تقصي كل أشكال التداخل¹، ومعترف بها خارجيا. كما يتضمن معنى قانونيا، فهو حسب تعريف ماكس فيبر الفضاء الخاضع "السلطة القهر الشرعية" أي لسلطة عليا مالكة لسيادة مطلقة عليه. أفرز هذا التصور فكرة التحييز أو التملك (territorialisation)، وهي مجمل السياسات والإستراتيجيات التي تلجأ إليها السلطة الحاكمة أوالمهيمنة بهدف تحقيق سيطرة متواصلة على فضاءها وحمايته من الأخطار الخارجية. وينضاف إلى هذه العناصر بعد رمزي أو وجداني يربط المجموعة بفضائها الذي يصبح وطنها. وبذلك تؤدي مختلف عمليات التملك - في بعدها المادي والرمزي - إلى تطوير الوعي الوطني، أي حسّ الإنتماء إلى جماعة قومية أو وطنية يتجاوز الإنتماء المحلي الضيق ويخلق الإحساس بـ "الهوية الإقليمية"².

سوف تعترض القارئ في ثنايا هذا البحث مفردات التحييز والحيازة والحوز التي تحيل على معاني التملك وتؤدي إلى تحويل الفضاء إلى مجال، وهي الكلمات المعبرة عن فعل *territorialisation* الوارد في المؤلفات التي اعتمدها. وقد أوحى لنا باستعمال لفظة التحييز تواردها في المراسلات العائدة إلى القرن التاسع عشر³.

¹ لخص بادويل Baduel خصائص مجال الدولة الحديثة بكونه "فضاء غير مشخص، هندسي، عقلاني، إقصائي محدد ومغلق".

P.R Baduel ; « Le front de l'Etat. Eléments pour une approche comparative autour de la Méditerranée », in *Le monde musulman à l'épreuve de la frontière*, Paris- Edisud, 1988, p. 135

² يمثل هذا التعريف الحد الأدنى لتحديد مفهوم المجال وهي الخصائص التي يتفق حولها أغلب الدارسين. لمزيد الإطلاع يمكن الاستفادة من الحوصلة التي قام بها الباحث "تيزون" لمختلف التعريفات التي يقدمها الباحثون لمصطلح المجال

Philippe Tizon ; « Qu'est-ce que le territoire ? », dans *Les territoires du quotidien*, sous la direction de Guy Di Méo, Paris- L'Harmattan, 1997, pp. 17-23.

Bertrand Badie ; *La fin des territoires, Essai sur le désordre international et sur l'utilité du respect social, l'espace du politique*, Fayard, Paris 1995, p. 41.

Daniel Nordman; « De quelques catégories de la science géographique. Frontière, région, et interland en Afrique du Nord (19^e et 20^e siècles) in *Annales HSS*, Sep-Oct., 1997, n°5, pp. 969-970.

³ في سنة 1295هـ (1877-1878) أخبر الجنرال رشيد عامل الكاف والرقية وناظر عروش ونيقة البلاط باستيلاء الفرنسيين على أرض فقال " تبيّن أن الأرض التي تحيزوها كانت في حيز المملكة التونسية وذلك أن سيدي أحمد الكبير منذ كان عاملا على الكاف توجه مع من كلف من عمالة الجزائر إذاك لتميز الحدّ الفاصل بين المملكتين بحضور خواص من أعيان المملكة *فانجاز* المكان المذكور إلى العمالة الغربية وذلك قبل عام 1270هـ (1853) والقصد *بتحييز* المكان هو أن من عادتهم (أي السلط الفرنسية) إذا أرادوا جعل عسة (مراقبة) من السبايس (الصباحية) يميزون من الأرض ما يكفي لنزولهم...". الأرشيف الوطني التونسي: الصندوق 212 . الملف 229. المراسلة عدد 139.

اعتبرت مختلف الدراسات الحديثة، لا سيما الأوروبية منها أن المنظومة السياسية الحديثة، أي الدولة/الأمة/المجال¹، لم تتحقق بشكل عميق وشامل إلا في أوروبا عبر مسار انطلق منذ القرن السادس عشر أو قبله بقليل، واكبه صراع طويل خاضته الأسر الحاكمة ضدّ السادة الإقطاعيين في الداخل، والقوميات الأخرى في الخارج. نجحت تلك الأسر تدريجيا عبر الحروب والإلحاقات الترابية والاتفاقيات فيما بينها في ضبط حدودها وتحقيق تمايزها عن بعضها وأفضى هذا المسار تدريجيا إلى تكوّن مجموعات قومية. و ترى نفس الدراسات أيضا أن نموذج الدولة الترابية واحد، وهو ذلك الذي تحقق في الوعي الغربي خلال القرن التاسع عشر مع نجاح الثورة الصناعية والثورات السياسية التي حوّلت ولاء المجموعات بها من شخص الملك نحو الدولة ومؤسساتها. واستنادا إلى هذا المنطق، اعتبر أولئك الدارسون أن هذا التحوّل، أي انبعاث الدولة القومية الترابية، ظل غريبا عن الفكر الإسلامي، وقامت مواقفهم على استبعاد فكرة المجال في الوعي العربي الإسلامي.

اعتبر الباحث في تاريخ الإسلام الأمريكي برنار لويس مثلا، أن الأرض أو الإقليم لم تكن له مكانة تذكر في الوعي الجماعي للشعوب الإسلامية، كما رأى أن التطوّر الذي حدث في أوروبا وأفرز الفروقات الإقليمية التي أصبحت مصدر تحديد للهويات، لم يوجد له نظير في العالم الإسلامي قبل القرن التاسع عشر، مضيفا أن العديد من البلدان ضمن هذا الحيز لم يكن لها حتى إسم مميز. كما جزم نفس الباحث بأنه قبل القرن العشرين، لم توجد أية دولة تستند في تعريفها إلى المجال التابع لها². وتعرضنا نفس المواقف تقريبا لدى عالم السياسة برتراند بادى³. وفي نفس السياق اعتبر البعض من الدارسين الغربيين أن الدولة الإسلامية، ظلت محكومة حتى عهد الإمبراطورية العثمانية بمنطق "دار الإسلام" أو "مملكة الإسلام" القائل بأن أمة الإسلام واحدة وتتجاوز جميع الحدود وهي في توسّع مستمر تماشيا مع الإشعاع الديني والثقافي للإمبراطورية الإسلامية. أما "الفكرة الأوروبية الحديثة عن "الدولة - الكيان" المحدّد إقليميا بمعزل عن الحاكم أو السلالة والمنظّم وفق قواعد من صنع الإنسان فقد كانت غريبة عن النظرية السياسية الإسلامية"⁴. نستخلص من هذه المواقف أن الفضاء

¹ Etat / Nation / territoire.

² - وردت هذه الملاحظات في:

Lewis (Bernard) ; *Comment l'Islam a découvert l'Europe*, Paris , La Découverte, 1984, pp. 52-53.

³ - وهو ما يتجلى في الحوار الذي أجرته معه مجلة قنطرة حيث يقول ما يلي:

Entretien avec Bertrand Badie, in *Qantara*, (magazine de l'Institut du Monde Arabe), "Monde arabe, monde musulman, les territoires de l'appartenance", N° 17, oct., nov., dec., 1995. p. 21.

⁴Thomas Naff and Ruth C. Matson eds ; « Water in the Meaddle East : conflict or cooperation ? », Boulder col, Westview press, 1984, p. 143.

ورد في قرني ؛ مرجع مذكور، ص. 58.

العربي الإسلامي ظل يستمدّ وحدته الداخلية من الرابطة الدينية والثقافية وتتحدد هويته بالصراع مع الخارج أو ما يسمى بدار الحرب. الأمر الذي يوحي بأن بناء الدولة الترابية يكتسي شكلا معيناً وثابتاً (أي المثال الأروبي) الذي تقاس عليه بقية البناءات الأخرى.

ويتخذ المفكر والباحث في تاريخ الإسلام هشام جعيط موقفاً واضحاً من هذه المسألة إذ يرى أنه "لم يكن هناك (حتى أواسط القرن التاسع عشر) وعي عربي موحد يشمل مجمل المجال اللغوي العربي أو وعي جزئي يشمل بلداً أو بلدين أو حتى وعي وطني معمم في الدول المتطورة سياسياً". واعتبر أن "الشعور الوطني القومي ضايقه تطور تاريخي مؤسف" تعود إحدى أسبابه حسب رأي المؤلف إلى الاتجاه السلمي داخل ما سماه بـ "دار الإسلام" والمرتبط بالروح الحربية الخارجية وباستمرار فكرة الجهاد، الذي عمل على "إيقاف الشعور السياسي الوطني إيقافاً كاملاً"، مضيفاً بأن "ظاهرة الولاء في صلب الدولة" كتبت بدورها "فكرة الوطن في الغياب"¹.

وفي هذا السياق أشار باحث آخر إلى غياب فكرة المجال في معناها الحديث، أي كإحدى الأبعاد المؤسسة للدولة، من الأدبيات السياسية العربية حتى أواسط القرن العشرين، إذ لاحظ أن الخطاب السياسي ظلّ يستثني من شواغله مصطلحات الحدود والمجال، معتبراً أنّ الحدود الوحيدة المعترف بها هي حدود لغوية وثقافية².

عموماً صنفت الأبحاث الإنسانية الخاصة بالأنظمة المتوسطة بلدان مغرب ما قبل الاستعمار ضمن نموذج "الدولة التقليدية" التي تتميز فيما تتميز به بمحدودية سيادتها على الإقليم الترابي التابع لها لا سيما في مناطق الأطراف³. وهذا التصنيف بالذات يحيلنا على تصوّر ابن خلدون لمجال الدولة في عصره، أي في القرن الرابع عشر الميلادي، إذ اعتبر أن "أن الدولة في مركزها أشدّ ما تكون في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه..."⁴. فهل أن علاقة السلطة بمجالها في إيالة تونس كانت قبل انتصاب الحماية شبيهة بتلك التي عرفتها الكيانات السياسية المغاربية أو العربية الوسيطة؟ لنستجّل في البداية مواقف الدارسين من هذه المسألة.

¹ هشام جعيط؛ الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، دار الطليعة، 1990، ص. 38-48.

² Khalid Hamdani؛ « La dimension absente du nationalisme arabe: Le territoire », in *Hérodote, géopolitique en Afrique*, n°46, 4è trimestre, 1987.

³ قام بادويل بالمقارنة بين مختلف التحليلات التي قدمتها الأبحاث السياسية والتاريخية و الأنتربولوجية للدولة المتوسطة و لمزيد الإطلاع : Baduel (P. R) ; « Le front de L'Etat... », *op.cit*, p. 135. ويرى نفس الباحث أنه من غير الممكن الحديث عن مجال بالمعنى الحديث في الفترة السابقة للاستعمار في ظل ما سماه في مداخلته « L'Etat incarnatif » وترجمها بدولة العدل أو « L'Etat de justice » أي الدولة المرتبطة بشخص الحاكم والتي لم يتحقق فيها بعد التحوّل إلى دولة يحكمها القانون والمؤسسات أو ما يسمى بـ «Etat de droit»، راجع:

P. R. Baduel ; Rapport de synthèse et discussion de l'atelier n°3 « formes de l'allégeance et territorialités » présenté au colloque *Villes et territoires au Maghreb Mode d'articulation et formes de représentation*, Tunis 17 – 19 septembre 1998, p. 6.

⁴ ابن خلدون (عبد الرحمان): المقدمة، بيروت. دار الكتاب اللبناني، 1979، ص. 285-286. وسنشير إلى هذا المصدر لاحقاً بالمقدمة.

صنّف الباحث في المجال السياسي ميشال كامو، في إطار دراسته للخصوصيات السياسية للدول المغاربية الحديثة، الدولة التي عرفتها البلاد التونسية قبل انتصاب الحماية، ضمن الدولة البترمنالية أو التقليدية، لكنه اعتبر أن هذين التصنيفين لا يتطابقان مع المدلول التاريخي لدولة البايليك. إذ رأى أن الدولة الحسينية كانت تملك مقومات الحداثة: مجال وسيادة خارجية، وأكّد على أهمية التأثير الأوروبي الناشئ عن المبادلات التجارية، في حصول هذا التطور¹. وكان أوجه الحداثة في البناء الترابي الذي عرفته البلاد التونسية خلال العهد العثماني يقتصر على الدولة الحسينية أو هو مدين بوجوده في نهاية الأمر إلى الانفتاح على أوروبا. ثم ما معنى دولة تقليدية؟ أليس في ذلك تصنيف تفاضلي لفائدة مثال متفوق هو أوروبا؟

طرحنا مسألة تعريف الكيانات الجغرافية السياسية المغاربية تاريخيا، منذ القرن التاسع عشر وتميزت الدراسات في الفترة الاستعمارية بقراءتها المحدودة للوضع الداخلي لهذه البلدان، إذ نفت تحاليلها أن يكون لهذه البلدان مجال بالمعنى الحديث. ففضاءها الجغرافي فوضي وتحكّم السلطة فيه محدود أو غائب تماما، وهي عبارة عن تجمع لشتات من القبائل المترحلة أكثر منها دولا ترابية².

لكن، على عكس هذا التصوّر نكتشف شكلا آخر من الخطاب حول الدولة ومكوّناتها لا يقل موثوقية عن هذا الذي نشاهده لدى كتاب العهد الاستعماري، وهو الخطاب الوطني المفعم الذي تبلور زمن الاستعمار أو بعده والذي يقرّ بوجود كيان تونسي كمعطى ثابت وموروث عن حقب تاريخية موعلة في القدم³. اختزل ذلك الخطاب حركة التاريخ في صورة ذهنية مغلقة، إذ اعتبر الدولة التونسية حالة أبدية ثابتة في الوجدان التاريخي. وهو في مجمله خطاب استراتيجي ارتبط في البداية بإيديولوجية المقاومة، ومثل ردّ فعل المثقفين على السياسة الاستعمارية الرامية إلى طمس الشخصية الوطنية، ثم في مرحلة لاحقة أي بعد الاستقلال، تمّ توظيفه في محاربة الفروقات

¹ Michel CAMAU ; « Politique dans le passé, politique aujourd'hui au Maghreb », in *La greffe de l'Etat*, Karthala, Paris, 1996.

² قام الباحث د. نوردمان بدراسة نقدية لمختلف المواقف التي صاغتها الكتابات الفرنسية في القرن التاسع عشر حول المجال المغاربي ضمن أطروحته

Daniel NORDMAN ; *La notion de frontière en Afrique du Nord (vers 1830 –1912)*, thèse de 3è cycle, Montpellier, 1977.

³ اهتم الباحث ح.ر. حمزة باستقصاء مفهوم الدولة عبر تحليل الخطاب السياسي لدى الحبيب بورقيبة. يتضح أن مفهوم المجال في ذلك الخطاب كان غائما أو لنقل أنه كان موجودا ولكن ضمنيا أو بالقوة في مفهوم الدولة أو الأمة. تلك الدولة التونسية التي حددت هويتها وفق مقومات إننو-ثقافية تتمثل في تجذرها العميق والنهائي في العروبة والإسلام.

H.R HAMZA ; « L'Etat dans la pensée et l'action Bourguibienne », Actes du II ° congrès sur *Bourguiba, les Bourguibiens et la construction de l'Etat National*, sous la direction de A. TEMIMI, FETRSI, Zaghuan, septembre 2001, p. 52.

والإنتماءات القبلية بهدف تحقيق الوحدة والانسجام بين مختلف الفئات الاجتماعية في الداخل وتدعيم البناء الدولتي¹.

غير أن هذا الخطاب كان له تأثير واضح على الدراسات التاريخية التي تناولت موضوع بناء الدولة في تونس في الفترة الحديثة². إذ سعت إلى تقديم مجال البلاد التونسية كإطار جغرافي سياسي موروث وكموضوع جاهز قامت الدول المتعاقبة بمحاولات للسيطرة عليه ومراقبته. فهناك حسب الدارسين، إرث جغرافي وتاريخي تواصل منذ العصور القديمة، يظهر في مستوى شكل البلاد وإسمها. لكن هل أن تواصل إسم المجال في التاريخ، يعني محافظته على ذات المدلول والوظائف في وعي المستعملين له؟ وهل يتطابق هذا الرأي مع الوضع الذي عرفته البلاد التونسية خلال العهد العثماني؟

أما المسألة الثانية وهي البارزة في عنوان البحث فتتعلق بمسألة البناء الترابي وتكوّن الهوية الترابية في ضل تبعية البلاد القانونية للدولة العثمانية. مبدئيا يحيل البناء الترابي على معنى السيادة أي على امتلاك السلطة الحاكمة حرية الفعل تجاه المجال التابع لها، لكن كيف يمكن الحديث عن سيادة في إطار تبعية سياسية للبلاد تجاه الإمبراطورية العثمانية؟

قسمت هذه المسألة الباحثين إلى فريقين: أنصار البناء الداخلي في إطار استقلالية تامة أو تكاد عن الدولة العثمانية (محمد الهادي الشريف، توفيق البشروش، لوسيت فالنسي، منترون...) الذين اعتبروا أن الكيان الترابي للبلاد التونسية نشأ في غياب تامّ لتدخل السلطة العثمانية في شؤون الإيالة، وهو ما فتح المجال أمام قيام مؤسسات محلية مختلفة عن أنظمة الإمبراطورية³ وأمام تطوّر النظام الساسي نحو مزيد من الاستقلالية جسمها انتصاب الحكم الملكي الوراثي المرادي في القرن السابع عشر ثم الحسيني في القرن الثامن عشر⁴.

¹ ولم تتحول نظرة بورقبية في تحديد مفهوم الهوية التونسية بالتركيز على البعد الترابي، إلا بعد الاستقلال. يتنزل هذا التحول في إطار ظرفية تاريخية معينة تتمثل في مواجهة التيارات الشمولية بصنفها القومية العربية من ناحية والإسلامية من جهة ثانية.

² حول تصوّر المؤرخين التونسيين لمسألة الدولة وتأثرهم بالظرفية الوطنية أنظر:

M.H Cherif ; « Approche hésitante de l'histoire de la Tunisie indépendante (1956 – 1962) , la parole aux témoins », pub. de l'ISHMN (L'Institut Supérieur de l'Histoire du Mouvement National)Tunis, 1998, pp. 291- 297.

³ تجد هذه المواقف سندها في التطور التاريخي الذي عرفته الإيالة من ناحية وفي الدراسات التي أنجزها الفرنسيون منذ القرن التاسع عشر. وقد خصصت الباحثة أسماء معلى مقممة أطروحتها لنقد مواقف الباحثين القائلة باستقلال البلاد عن الباب العالي..

Asma Moalla; *The Regency of Tunis and the Ottoman Porte (1777 – 1814). Army and government of a North –African ottoman Eyalèt at the end of the eighteenth century*, London – New York, Routhledge Curzon, 2004.

⁴ كوّن الحسينيون في نظر المؤرخ محمد الهادي الشريف، عائلة "شبه وطنية". محمد الهادي الشريف؛ خلاصة تاريخ تونس، دار سبراس، تونس، 1980.

وفي مواجهة هذه الأطروحة يوجد تصوّر مغاير لمسألة علاقة تونس بالدولة العثمانية، رأى أصحابه أن الروابط بين تونس والمركز العثماني كانت أعمق مما صوّره أصحاب الموقف الأول، وأن المؤسسات التي سارت عليها البلاد حتى القرن التاسع عشر لم تخرج عن النظم والمؤسسات المركزية العثمانية¹. كيف نؤفق بين هذين الموقفين في قراءة مسار تكون الكيان الترابي للبلاد التونسية؟ هل كان وضع البلاد كإيالة عثمانية عقبة حقيقية أمام بروز ذاتية وطنية؟

سوف نسعى من خلال هذا الدراسة إلى التذليل، خلافا لما جزم به الدارسون، على حصول سيرورة تكوّن مجال وسلطة دولة لها سيادة في ضل وضع قانوني ميزت به إسطنبول ولاياتها البعيدة. كما أن هذا التمشي سيمكننا من تجاوز الرؤية المحدودة لأدبيات الفترة الاستعمارية من جهة، والخطاب السياسي الوطني ذو النزعة التوحيدية من جهة ثانية. وهذا التجاوز يمكن تحقيقه عبر قراءة متأنية في المصادر وفي الخطاب التاريخي عموما.

ساعدنا على الإحاطة بهذه المسألة، أي مسار البناء الترابي في ظل الانتماء العثماني، مجموعة من المصادر والمراجع رأينا من الفائدة التوقف عندها لنبين مدى مساهمتها في إسناد هذا البحث وإثرائه. اعتمدنا على صنفين من المصادر: الكتابات التاريخية والأرشيف.

♦ الكتابات التاريخية: لم يظهر أي أثر تناول تاريخ البلاد في هذه المرحلة إلا بعد مرور ما يناهز عن القرن ونصف من تاريخ تأليف كتاب الزركشي². ومردّد هذا الغياب للتأليف في تاريخ البلاد، حسب رأينا، لا فقط ما عرفته إفريقية الحفصية من مصاعب خلال القرن السادس عشر بل غموض الوضع الداخلي للإيالة في مستوى مجالها ومؤسساتها أيضا. تمكن المصادر المحلية³ من تتبع سيرورة تحييز جهاز الحكم المستقرّ في تونس للمجال الداخلي وطبيعتها في كلّ مرحلة من المراحل التي مرّت بها البلاد، ومن تحسّس كيفية تصور تلك النخب لمجال البلاد وتكشف عناوين المصادر التي باتت تتضمن أسماء البلاد، عن حصول تحوّل ذي معنى فيما يتعلق بإدراك تلك النخب للمجال. وتؤكد المساحة الهامة التي خصصتها المصادر التاريخية الأولى للعهد العثماني (ابن أبي دينار والوزير السراج) لتاريخ البلاد عن بداية تكوّن الوعي بأهمية المجال الترابي واستقرار الأوضاع الجغرافية السياسية للبلاد. ومثلت مختلف التسميات التي أطلقت على البلاد في المصادر المحلية مرصدا

¹ Moalla : *op.cit.*

² الزركشي؛ *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس، الطبعة الثانية، 1966. يعود هذا الأثر إلى بداية القرن الخامس عشر. وسنختصر الإشارة إليه بـ: *تاريخ الدولتين*

³ وهي مصادر العهد الحديث تلك التي تناولها بالدرس الأستاذ أحمد عبد السلام

Ahmed Abdessalem ; *Les historiens tunisiens des XVIIè, XVIIIè et XIXè siècle. Essai d'histoire culturelle*, Paris-Tunis 1973.

تعرفنا من خلاله لا فقط عن عملية التحييز المتواصلة التي خضعت لها الدواخل بل كذلك على موقف أصحابها من البلاد ومن الاسم الذي أطلقته الإمبراطورية العثمانية عليها.

لكن هذه المصادر بالرغم من المعلومات القيمة التي توفرها حول مسار بناء المركز تظل رؤيتها محكومة بموقع أصحابها من السلطة ومن البلاد: فهم في الغالب أصيلوا مدينة تونس ومن المقربين إلى السلطة، وعتمت مؤلفاتهم على دور المجموعات الداخلية (القبلية وغيرها) بحيث تلعب دورا هامشيا في عملية التحييز وبناء المجال وتبدو في الغالب مفعولا بها أكثر منها فاعلة. وباستثناء الصغير بن يوسف (ت. حوالي 1771) الذي قدّم معلومات دقيقة حول الأوضاع المحلية في جهته أي منطقة باجة، لا نلمس لدى المؤرخين اهتماما حقيقيا بالأوضاع المحلية.

كما تغيب من المصادر أو تكاد بعض المسائل الحساسة المتعلقة بتكون مجال الإيالة لعل أبرزها تلك المتعلقة بالتحويلات الجغرافية السياسية التي عرفت المنطقة خلال القرن السادس عشر والتي لم تخلف سوى آثارا باهتة في المصادر.

ولتدرك هذه النقائص التجأنا إلى مصادر أخرى يعود الفضل في الكشف عنها إلى مؤرخين فرنسيين مثل فرناند برودال أو شارل منشيكور الذان تمكنا، بفضل اطلاعهما على الأرشيف الإسباني من كشف النقاب عن التحويلات الجغرافية السياسية التي عرفت البلاد خلال القرن السادس عشر. أما جون بينيون وبرنار روا فقد قاما بتحقيق روايتن لأسيرين لدى حكام تونس حول أحداث الربع الأول من القرن السابع عشر. نحن مدينون تقريبا في كلّ ما يتعلق بالوضع الداخلي للبلاد في بداية القرن السابع عشر وبأحداث تسطير الحدّ سنة 1614 بين إيالتني تونس والجزائر إلى الأسير إلياط Eliatt. أما اتفاقية 1628 والأحداث التي حفت بها فهي أيضا من تدوين أسير آخر هو المملوك الإيطالي أثار دو. ومثلت كتب الرحلة والوصف التي دونها كذلك ملاحظون أوروبيون، مثل بوارون Poiron، وبايسونال Peyssonnel، والكونت فيليبي Filippi، وبليسي Pellissier...، عنصرا مكملا للبحث. تكمن أهمية هذا الصنف من المصادر لا فقط في الوصف الذي يقدمه مؤلفوها للمجموعات المحلية من حيث نظمها وعاداتها بحكم تنقلهم في البلاد، بل كذلك في كيفية قراءتهم للواقع على ضوء ثقافتهم وانتماءهم الأوروبيين.

لئن أضاء كلّ صنف من هذه المؤلفات جانبا أو أكثر من البحث في تكون المجال فإن المصادر الأرشيفية، المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي، تحتل مكانة مركزية في هذه الدراسة. فقد مثّل الأرشيف بحكم تنوعه وثرأه موضوعاته مستندا أساسيا. ينقسم المتن الأرشيفي التي اعتمدها إلى صنفين: الدفاتر وهي متنوعة المواضيع، والمراسلات.

◆ الدفاتر: رغم الإلتلاف الذي تعرضت له¹، مثلت الدفاتر الجبائية مستندنا الرئيسي في الإطلاع على التقسيم الإداري للمجال وتطوره خلال الفترة المدروسة. تبين الدفاتر بدقة وبوضوح تامين عملية تحييز المجال الداخلي للإيالة وتكشف بذلك وفي الآن نفسه عن علاقة السلطة بالدواخل وبالإمبراطورية العثمانية².

وعلى المستوى الخارجي استفدنا من صنف آخر من الدفاتر وهي الخاصة بالمعاهدات مع الخارج أو دفاتر وزارة الخارجية³. ففي هذا المصادر عثرنا على اتفاقية التحديد بين إيالتي تونس والجزائر العائدة إلى 1628، وكذلك على ملابسات النزاع الحدودي الحاصل بين السلطة المركزية وفرنسا حول الحدّ الساحلي بين تونس والجزائر. كما يتضمن رصيد المعاهدات بين الإيالة والدول الأوروبية خلال الفترة العثمانية، ومختلف التسميات التي أطلقت على البلاد التونسية من طرف البلدان الأوروبية المتعاقدة معها وتطورها. كما تكشف عن تأقلم السلط المحلية مع تغيرات الوضع الخارجي لا سيما فيما يتعلق بتحييز المجال الساحلي أو ما أصبح يسمى في بداية القرن التاسع عشر بـ "ماء تونس" وبسط الهيمنة عليه. كما أمكننا، تحسس مسار تدعيم المركزة والإستقلالية وذلك من خلال تتبع تركيبة الأطراف الموقعة على هذه المعاهدات.

◆ المراسلات: وهو رصيد ضخّم، يعود في مجمله إلى القرن التاسع عشر⁴، محفوظ بالأرشيف الوطني التونسي أو بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية أو بمقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس. انتقينا منه ما يستجيب لشواغل البحث وهي الملفات الخاصة بالمسألة الحدودية الناشئة بعد سنة 1830 بين البلاط الحسيني والسلطة الفرنسية المستعمرة للجزائر.

تتضمن المراسلات الخاصة بالمناطق الحدودية (مراسلات القيادة) بداية تسرب مصطلحات الحدود والمجال في مفهومها الحديث، أي كما تبلور في أوروبا في القرن التاسع عشر وردود الفعل المحلية (المجموعات المحلية والبلاط الحسيني) المتباينة تجاه الوضع الجديد. ويتضمن الأرشيف الخاص بهذه الفترة ملفات أخرى تتعلق بمختلف الإصلاحات القانونية التي عرفتها البلاد في 1861، مكنتنا من الاطلاع على تقنين الإدارة المحلية والمركزية وإعادة الهيكلة الإدارية للدواخل، بمعنى تكريس المراقبة الداخلية وتعمق مسار المركزة.

¹ إضافة إلى عدم توفر دفاتر تعود إلى ما قبل سنة 1776-1781، وهو الدفتر عدد 1. فقد فقدت الصفحات الأولى في العديد من الدفاتر التي اشتغلنا عليها.

² حول هذه السجلات ودورها في تتبع تحييز المجال براجع :

Fatma BEN SLIMANE ; « De l'espace au territoire de l'identité. Registres fiscaux et représentations de l'espace dans la Tunisie ottomane (fin 17è –début 19 è siècles) », in *la perception de l'espace au Maghreb*, coordination Lotfi Issa, 2011, pp. 83-100.

³ حسب الترتيب الذي خضعت له عملية تنظيم الأرشيف في بداية عهد الحماية.

⁴ تضمنت بعض الوثائق العائدة إلى القرن 18 مثلاً تنظيم كل من علي باشا (1752) وحمودة باشا الحسيني (1795) للعلاقات بين نهد وتجار القالة، أو شهادة سكان منطقة أرقق بتبعيتهم إلى تونس والعائدة إلى 1627.

وكما هو واضح كانت استفادتنا من الأرشيف المركزي في مختلف مراحل البحث كبيرة، لكن بعض الجوانب لم ينلها حظ الدراسة بالقدر الكافي ونقصد بذلك خاصة دراسة دور المجموعات المحلية في سيرورة تكون المجال الترابي وقد حاولنا سدّ هذه الثغرة عبر الرجوع إلى المنوغرافيات التي أعدها الباحثون في الجامعة في الثمانينات وبداية التسعينات حول المجموعات القبلية (جلاص، أولاد عيار، ونيفة،...) أو الأعمال التي تناولت بالبحث العلاقة بين المحلي والسلطة المركزية (الجريد، جربة، الفراشيش وماجر، تونس). كما تكتنف الضبابية بعض الجوانب الأخرى من هذا البحث، نخص بالذكر منها التطورات الجغرافية السياسية التي عرفتها البلاد في القرن السادس عشر أو عند تحولها إلى إيالة عثمانية وإعادة بناء مجالها. وهو أمر ربما يستوجب ضرورة الرجوع إلى الأرشيف العثماني. ساعدتنا معرفتنا المتواضعة للغة التركية الحديثة في الاطلاع على بعض الدراسات المكتوبة بهذه اللغة وهو ما مكننا من التعرف مثلا على النظم العثمانية ومختلف التصنيفات القانونية التي خصت بها الإمبراطورية إيالاتها¹. لكننا لم نطلع من الأرشيف العثماني إلا على ما نشره كل من الأستاذ عبد الجليل التميمي وإلتر عزيز سماح من وثائق حول التشكل الإداري في إيالة تونس العثمانية خلال القرن السادس عشر.

حاولنا في هذا البحث الابتعاد عن التصنيفات الجاهزة والمسلمات ونزعة اليقين والثبات في قراءة الماضي، وذلك عبر تحليل مواقف الفاعلين والإنصات إلى أقوالهم، لا سيما من داخل المركز، واستراتيجياتهم. فالمجال ككل الأصناف، ليس موضوعا جاهزا بقدر ما هو بناء مستمر على مستوى التصوّرات واللغة والممارسة، كما تتطّفر في تكوينه أطراف عديدة غيرت نظرتها واستراتيجياتها حسب السياق التاريخي. أوحى لنا بهذا التمشي المنهجي التوجهات التي عرفها مؤخرا البحث في التاريخ الاجتماعي والمتمثلة في إعادة النظر في التصنيفات عبر البحث في الوثائق وما تتضمنه من مصطلحات ذات مفهوم يتغير حسب ما يمليه الطرف التاريخي². فمجال الدولة ليست موضوعا ناجزا بقدر ما هو مشروع في تطوّر مستمر وفي تفاعل مع الظرفية التاريخية³. وفي هذا الإطار المنهجي أيضا، اعتمدنا على ما كتبه الدارسون في ميدان الجغرافية

¹ وهي دراسات محفوظة في مكتبة اللغات الشرقية بباريس.

² استفدنا بالخصوص من مجموعة المقالات التي نشرت ضمن المؤلف التالي :

Jacques REVEL (Sous la direction de) ; *Jeux d'échelles , la micro- analyse à l'expérience*, Gallimard, 1996.

Bernard LEPETIT ; *Les formes de l'expérience, une autre histoire sociale*, Albin Michel , 1995.

³ بين المؤرخ لوبوتي LEPETIT أن الدولة كصنف يمكن دراستها وتحليلها وفق منهجية الميكروستوريا وذلك عبر

القيام بقراءة في مؤسساتها وتطورها التاريخي وتحليل لغة الفاعلين المعبرة عنها

Ibid, « L"expérimentation contre l"arbitraire », *Annales HSS* . n°47, 1992.

الاجتماعية والثقافية حول مفاهيم المجال وأشكال التمييز المفضية إلى اعتبار المجال نتاجا لعلاقات الناس بمحيطهم الجغرافي. وهي علاقات متشعبة ذات أبعاد مادية ورمزية متنوعة¹.

تندرج دراستنا، كما هو واضح، ضمن المدى الطويل، إذ تمتد بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر، وذلك لما يتيح هذا الخيار من إمكانية المقارنة بين الفترات الزمنية، كما أنه يمثل حسب رأينا، الإطار الأنسب لتحسس نشأة الكيان الجغراسياسي "التونسي" وتطوره عبر هذه الفترة. وهو ما سيمكننا من وضع نقط استدلال ومن التركيز على التحوّلات التي لها معنى بالنسبة للبناء المجالي.

لنوضح كذلك أن هذا البحث وإن قام على المدى الطويل فإنه لن يكون بحثا في الجغرافية التاريخية للبلاد التونسية، بل سيقوم بدرجة أولى على مقارنة سياسية للمجال يعني ذلك أننا سنشتغل بسيرورة بناء المجال عبر العلاقة الجدلية التي ربطت بين ثلاث أقطاب سياسية وهي: الحكومات المتعاقبة على البلاد بتونس في علاقتها بمختلف القوى الفاعلة في هذه السيرورة، الداخلية والخارجية (المجموعات المحلية والإمبراطورية العثمانية، القوى الأوروبية...).

ينطلق البحث من تاريخ الإنتصاب العثماني بتونس سنة 1569-1574، وهو حدث يمثل حسب رأينا، نقطة تحوّل تمثلت في بداية اضمحلال النموذج الحفصي (أو الوسيطى) الذي صوّره ابن خلدون في المقدمة لعلاقة الدولة بفضائها: قوية في مركزها ضعيفة في أطرافها، تلك الأطراف التي سرعان ما تتحول إلى دويلات مستقلة كلما تطرّق الضعف إلى المركز. أما نقطة الوصول فهي الفترة التي سبقت انتصاب الحماية وتمثلت في بداية انفتاح البلاط الحسيني على التصوّر الأوروبي للتنظيم الترابي.

تشمل دراستنا لسيروورة تشكل مجال البلاد التونسية خلال العهد العثماني ثلاث محاور بدت لنا تستجيب لمشاغل البحث وهي:

- التسمية : يمثل فعل إعطاء إسم للمجال الترابي إحدى مظاهر امتلاك المجال، وهو تعبير عن الوعي بالذات وقد بحثنا في هذا الموضوع عبر رصد المصطلحات والأسماء التي عبر بها أصحابها عن تصوّرهم للواقع في حاضرهم.

- الحدود: وهي التي ترسم الفضاء الذي تمتد فيه سيادة المركز والمعبر عن بروز دولة لها كيان ترابي واضح المعالم.

¹ أدرجنا هذه المؤلفات ضمن البحث.

- البناء الداخلي: يتعلق هذا المحور بتتبع سيرورة توحيد الفضاء الداخلي عبر سياسة احتواء المجموعات الداخلية والتخفيض المتواصل للنفوذ الذي تمتعت به في مراقبة الدواخل.

و قد أدرجنا هذه المحاور ضمن مخطط زمني، يتوزع بين أقسام ثلاث

قسم أول: تناولنا فيه بناء مجال إيالة تونس والتشكّل الأوّلي لحدودها من القرن السادس عشر إلى 1628. يبحث هذا القسم في مسار انقسام إفريقية الحفصية إلى ثلاث ولايات تابعة للإمبراطورية العثمانية من بينها إيالة تونس. لكن هذا الحدث وقد هيأت له مرحلة، انتقالية، مهمة امتدت على حوالي ثلاثة أرباع القرن تميزت بالصراع بين أطراف مختلفة وانتهت بتفوق المشروع العثماني على بقية المشاريع المنافسة له.

قسم ثان : درسنا فيه طبيعة العلاقة بين بناء المجال وبناء السيادة داخل إيالة تونس ويمتد من بداية القرن 17 إلى 1830. شكلت الحدود الإطار الذي هيمن فيه الحكام على الدواخل ومثلت فيه حماية الحدود البرية والبحرية توجّها قارًا نسبيًا. وهي الفترة التي اعتبرها الباحثون مرحلة "تلاشي المؤثرات العثمانية" (déturquisation) أو "التونسنة" أي تكوّن "مجال ذي سيادة".

قسم ثالث : نتطرّق ضمنه إلى سيرورة بناء الدولة الترابية: من 1830 حتّى قبيل انتصاب الحماية. هي مرحلة بروز فاعل جديد في المنطقة هو الاستعمار الفرنسي الذي حلّ في الجزائر حاملا معه نموذجا مغايرا من التصوّر للمجال وللمراقبة الترابية هو نموذج الدولة القومية الترابية التي تبلورت في أوروبا وبالأخص في فرنسا. يتعلق الأمر هنا بمحاولة استجلاء كيفية تعامل البلاط الحسيني مع الوضع الجغرافي السياسي الجديد.

فهرس الخرائط والجداول

- 45 خريطة نشأة إيالات المغرب بين 1569-1519
- ERREUR ! SIGNET NON DÉFINI. خريطة تكون إيالة تونس بين 1569-1577:التحولات الجغراسياسية
- 53 خريطة النزاع الترابي بين إيالتي تونس و طرابلس في الربع الأخير من القرن السادس عشر
- ERREUR ! SIGNET NON DÉFINI. خريطة "حدود" إفريقية من خلال المصادر الحفصية
- 103 خريطة النزاع الترابي بين إيالتي تونس و الجزائر : موقع قلعة أرق
- 117 خريطة الحد ما بين إيالتي تونس و الجزائر سنة 1628
- 118 خريطة الحدود بين إيالتي تونس و الجزائر في أواخر القرن السابع عشر
- 162 جدول أسماء المقاطعات الإدارية في دفاتر الجباية بين 1676 و 1744
- 227 خريطة إفريقية من خلال كتاب "الحل" للوزير السراج
- 231 جدول فضاء إفريقية من خلال كتاب " المؤنس في أخبار إفريقية و تونس" لابن أبي دينار
- 233 خريطة الإمتداد التقريبي لوطن إفريقية في دفاتر الجباية حتى سنة 1745-1746
- 250 خريطة عشائر نهد و الحد مع إيالة تونس سنة 1845
- 260 جدول الحدّ الساحلي بين إيالتي تونس و الجزائر في بعض المصادر الأوروبية الحديثة
- 266 خريطة رسم الحدود بين إيالة تونس و الجزائر سنة 1845
- ERREUR ! SIGNET NON DÉFINI. خريطة الحد بين إيالة تونس و الجزائر في سنة 1851
- 300 خريطة المقاطعات القضائية المحدثة في إيالة تونس سنة 1861
- جدول أسماء المجال في المصادر المحلية
- 361 جدول أسماء حكام تونس في المعاهدات والمراسلات مع بعض الدول الأوروبية 327
- 329 جدول الحكام و اسم البلاد في الأرشيف الوطني التونسي

الفهرس العام

3	التقديم
17	القسم الأول : انبعاث إيالة تونس وتشكل حدودها
19	الفصل الأول : "إفريقية" أم " تونس " ؟
19	1. إفريقية، اسم متعدّد الدلالات
20	أ. إفريقية كمرادف لمنطقة النل
21	ب. إفريقية كمرادف للقسم الشرقي من بلاد المغرب:
22	ج. عندما تنمهي إفريقية مع كامل بلاد المغرب :
24	د. إفريقية كإسم دالّ على المجال الحفصي
25	2. القوى المحليّة والمجال، تواصل أنماط التصوّر السابقة
25	أ. المخزن الحفصي : البحث عن استرداد "ملك" الأجداد
28	ب. القوى القبليّة : البحث عن إعادة بناء الأنساق المجالية القديمة
36	3. تونس كمشروع مجالي جديد
37	أ. مملكة تونس في استراتيجية الإسبان: حماية أوروبا المسيحية
40	ب. تونس مشروع ولاية عثمانية
(1) المسألة الترابية مع طرابلس	الفصل الثاني : تونس إيالة عثمانية
44	
47	1 . مراحل تشكّل "إيالة تونس"
47	أ. من ولاية تابعة إلى الجزائر إلى إيالة عثمانية (1569 – 1573/1574)
48	ب. مرحلة ضم طرابلس إلى بايلرباي تونس (1574 – 1577)
52	ج. النزاع الترابي بين إيالتي تونس وطرابلس: حقّ الاحتلال أم الحقوق التاريخية؟
55	2 . الخلاف الترابي بين إيالتي تونس وطرابلس: الحجج والمواقف
56	أ. الأهالي ودورهم في تشكل إيالة تونس
62	ب. حكام تونس والمسألة الترابية: العمل بسياسة الأمر المقضي
67	ج. حكام طرابلس والاستناد إلى شرعية الاحتلال
68	د. إسطنبول والمسألة الترابية: الوضع القانوني المتميز لإيالات المغرب
(2) مسألة الحدود مع الجزائر	الفصل الثالث : تونس إيالة عثمانية
73	
73	1. الحدود : اللفظ والمعاني
73	أ. الحدود ودورها في البناءات الوطنية الحديثة
75	ب. "الحدود" في الفضاء العربي والإسلامي
77	ج. لغة "الحدود" ومدلولاتها في المصادر الحفصية
81	2- من التخوم إلى الحدود : المواجهة الأولى

- 82 أ. بين إيالتي تونس والجزائر: التوازنات السابقة محلّ تساؤل
- 84 ب. الكاف: أو نشأة مدينة حدودية
- 85 ج. القبائل التخومية أو التثبيت بالعلاقات الوسيطة
- 89 د. ظاهرة جديدة: اللجوء إلى الشرع لفض المشكل "الحدودي"
- 91 3. المواجهة الثانية وبدائيات التقنين
- 91 أ. الحدث والمصادر التاريخية
- 92 ب. الحكم العثماني في تونس والمجموعات التخومية في بداية القرن السابع عشر: سياسة التطويق والاحتواء
- 96 ج. البحث من جديد عن حلّ في إطار الشرع
- 98 4. المواجهة الثالثة: حرب 1628 وإعادة تثبيت حدّ إيالة تونس
- 98 أ. رهان الحرب: قلعة "أرق"
- 104 ب. التحالف بين السلطة في تونس والقوى المحلية
- 109 ج. من الهزيمة العسكريّة...
- 110 د. ...إلى الكسب الترابي: اتفاق 1628 وتثبيت "حدود" إيالة تونس
- 124 **القسم الثاني: إيالة تونس المجال والسيادة (1630-1830)**
- 127 **الفصل الأول: مسار احتكار النفوذ**
- 128 1. توحيد الدواخل: الفعل العسكري
- 129 أ. انتزاع "رعايا" الزوايا.
- 130 ب. حرب الاستنزاف ضد القبائل
- 135 ج. تصوّر جديد للعلاقة بين السلطة والمجال
- 136 2 - توحيد المجال: التوازنات الجديدة
- 136 أ. المصادر الإخبارية و تضخيم دور السلطة في توحيد المجال
- 137 ب. توسع ظاهرة الاستقرار
- 143 3. المخزنة أو السند القبلي للنظام التركي
- 143 أ. المخزنة أو السند العسكري للنظام
- 148 ب. فئات الأعيان: التشريع للتوسع؟
- 150 ج. توحيد الدواخل وأثره على التطور السياسي للإيالة
- 154 **الفصل الثاني: النظم العثمانية والإرث المحلي، جدلية التباعد و التوطن**
- 155 1. الشبكة الإدارية وتطورها
- 155 أ. عثمانة مجال إيالة تونس
- 157 ب. تطور التنظيم الداخلي
- 164 ج. منعطف أواسط القرن الثامن عشر: تحويل الشبكة الإدارية ومدلولاتها
- 167 2. بين السلطة المركزية والنفوذ المحلي العلاقات الجديدة
- 167 أ. المراقبة المحلية: القيادة أو توحيد الممارسات الإدارية المحلية
- 173 ب. المراقبة المحلية: التقسيم الإداري وتطويق النفوذ المحلي
- 178 ج. تحولات التنظيم الإداري مرآة لمسار التوطن

- 185 الفصل الثالث : من الحدود العثمانية إلى حدود سيادة تونس**
- 185 1. تدعيم الإستقلالية تجاه الإيالتين المجاورتين
- 185 أ- واد سراط : الحدّ والرّهانات
- 187 ب- استراتيجيات حماية "الحدود"
- 191 ج- الحدّ مع إيالة طرابلس: دور القبائل الصحراوية
- 192 2- عندما تتسبب مجاوزة الحدّ في الإخلال بالسيادة الترابية لحكام تونس
- 193 أ- باي تونس بين التبعية إلى الجزائر والإستقلال عنها
- 194 ب- حرب 1807 أو استرجاع السيادة
- 199 3. سواحل إيالة تونس: من ثغور الإسلام إلى حدود سيادة تونس
- 199 أ. الإمبراطورية العثمانية سيّدة سواحل إيالة تونس
- 202 ب - سواحل إيالة تونس: من السيادة العثمانية إلى هيمنة حكام تونس
- 206 ج. السواحل الشمالية الغربية بين الهيمنة الأجنبية وإرادة التملّك المحلية

- 218 الفصل الرابع : إفريقية أم تونس، الأسماء والمدلولات**
- 218 1 - "إيالة" أو "ولاية" تونس العثمانية
- 220 أ. مدينة تونس كمركز للسلطة
- 221 ب. تونس "مكان-ذاكرة"
- 223 2. إفريقية المجال- الذاكرة
- 224 أ. التأسيس في القدم
- 225 ب. الهوية المفخّمة
- 230 3 . إفريقية : الإسم، المدلولات والرّهانات
- 232 أ. عندما يتبنّى حكام تونس إسم إفريقية إلى جانب "إيالة تونس"
- 234 ب. إفريقية في المصادر التاريخية
- 236 ج. إفريقية كهوية ترابية للبايات الحسينيين

240 القسم الثالث : نحو تبلور مفهوم الدولة الترابية 1830-1881

- 243 الفصل الأول : نحو مفهوم جديد للحدود، النزاع مع المستعمرة الجزائرية**
- 244 1. مسألة نهد والإدعاءات الفرنسية
- 245 أ. عروش نهد وعلاقتها بالسلطة المركزيّة في تونس
- 256 2. تخطيط الحدود
- 256 أ. الضغط العسكري الفرنسي: أحداث صانقة 1843 وأبعادها
- 258 ب - بناء أول حدّ بالمفهوم الحديث (أواخر 1843- 1845)
- 271 ب. البلاط الحسيني والخيار السلمي
- 273 4. الحدود الجديدة بين تأقلم البايليك و ضيق القبائل
- 274 أ. البلاط الحسيني: بداية استنباط الحدود في مفهومها الحديث
- 277 ب. المجموعات القبلية والحدود مع فرنسا: من "الحدادة جامعة" إلى الحدود الفاصلة.

288	الفصل الثاني : تحديث المجال الداخلي في مواجهة التحديات الخارجية
289	1. التحديث وتدعيم المركز
289	أ. التحديث العسكري: نحو تكوين جيش "من مجمل بلدان الإيالة"
292	ب - التحولات في الميدان الجبائي: السير نحو التوحيد المساواة الجهوية
296	ج. التكريس القانوني لمسار التوحيد والمركز
305	2. الواقع القبلي : هل هو مرادف للفوضى ولغياب الوعي بالمجال؟
306	أ - أنماط العيش المحلية: مظاهر الوحدة
309	ب. هل تحد "العادات" المحلية من سيادة السلطة على المجال ؟
311	ج. ظاهرة "الصفوف" وعلاقتها بتحيز المجال
319	د. انتفاضة 1864 كعلامة على وحدة المجال
322	الفصل الثالث : "إفريقية"، "تونس"، "الوطن"، تدعيم الوعي بالذات
322	1 . ترسخ إسم تونس
322	أ. "إفريقية": نهاية مرحلة
325	ب. أسماء المجال التونسي بين الإنتماء العثماني والسّيادة الفعلية
338	2. إيالة تونس: مجال هوية
338	أ. تونس: ميلاد الهوية الترابية
340	ب. المجموعات المحلية: كيف نقرأ تعدد الانتماءات؟
343	3. مدلولات الوطن عند ابن أبي الضياف
343	أ. الوطن التونسي
345	ب. الوطن كنقيض للغربة
346	ج. الوطن في "الإتحاف" : صور ودلالات
352	خاتمة عامة
	الملاحق
	قائمة الملاحق
358	المصادر والمراجع
359	المصادر الأرشيفية
364	المصادر التاريخية
368	المراجع
386	الفهارس
387	كشاف أسماء الأعلام
392	كشاف اسماء المجموعات و الأماكن
402	كشاف المصطلحات
405	فهرس الخرائط والجداول